جامعة بجاية

قسم اللغة والأدب العربي

محاضرات د لونيس بن علي في مقياس (أدب الهامش) طلبة سنة 3 أ

المحاضرة 01

**الهامش سوسيولوجيا:**

ينتمي "الهامش" إلى الظاهرة الاجتماعية، فهو يشير في الأصل إلى تلك الفئات الاجتماعية التي تعيش على هامش المُجتمع. في هذا السياق الاجتماعي، تتخذ الهامشية الاجتماعية وضعيتين:

أولا: الهامشية التي هي نتاج سلطة مركزية فرضت تقسيما اجتماعيا يميز بين من يمتلك السلطة والمال، وبين الفئات الخاضعة لهذا النظام الاجتماعي، وهي تتشكل من العمال والفقراء والعاطلين والحرفيين والقادمين من الأرياف، والمجرمين والمجانين...إلخ.

وثانيا: تتحدد الهامشية كموقف فكري وايديولوجي من المركز أو السلطة، ضد منظومتهما التي تعمل على إقصاء المختلف ونفيه وتنميطه في صور تهدف إلى تثبيتها على نحو دائم.

لا يظهر "الهامش" مفصولا عن المركز، بل هما مفهومان لا يمكنهما الاستغناء عن بعضهما البعض؛ فالفئات أو الحركات الهامشية هي جزء ضروري في تشكّل الدولة، سواء قديما أم حديثاً.

ويذهب علماء الاجتماع إلى أنّ الهامش بالمفهوم الاجتماعي الحديث هو سليل النظام الرأسمالي الذي لم يُحدث فحسب ثورة صناعية واقتصادية داخل المجتمعات الأوروبية، بل طال الحياة الاجتماعية للأفراد، فأعاد هندسة الفضاء الاجتماعي وفق تراتبية اجتماعية فرضتها الحركية الاقتصادية والتجارية. فظهرت قوى جديدة فرضت رؤيتها الاجتماعية والسياسية والأخلاقية التي قامت على تمجيد الثروة، بدل تمجيد الأخلاق الدينية. ومن نتائج تحول السلطة من الكنيسة إلى الدولة، هو تحول علاقة الأفراد بوجودهم الاجتماعي، فالذين يمتلكون سلطة القرار والمال أصبحوا هم من يمثلون المركز، أما هؤلاء العمّال والحرفيين والمنشقين سياسيا، والعاطلين عن العمل...إلخ فأصبحوا يمثلون تلك الفئات الهامشية الخاضعة تارة، والمتمردة تارة أخرى.

كان كارل ماركس من الفلاسفة الذين درسوا هذه الفئات الاجتماعية، واعتبر وجودها ضروريا في المجتمع، لأنها " تمثل جيش عمل احتياطيا يمكن التعويل عليه وقت الحاجة والاستغناء عنه زمن الأزمات. وقد أطلق "ماركس" على هذه الفئة تسمية "حثالة البروليتاريا" لأنها تعبّر عنهذه الشرائح التي هربت من سوء الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في الريف وحاولت البحث عن موقع لها في المدينة لكن العوائق التي تقف في وجه اندماجها تزيد في تعميق هامشيتها فتعيش على هامش الثقافتين الريفية والحضرية " (ابتسام، ط1، 2019، صفحة 29)

كان وصف ماركس لها قاسيا إلى حد ما، عندما وصفها بـ"حثالة البروليتاريا"، لكنه برره بأنها فئة تعيش الاغتراب الاجتماعي، من جهة ثقافة المدينة التي وضعت معاييرا تجعل من اندماج هذه الفئات في النسيج المديني غير ممكن، ومن جهة الثقافة التي انزاحت منها ويقصد بها الثقافة الريفية؛ فالهامشي هو الذي فقد ارتباطه بثقافة الأصل التي انحدر منها، بعد أن تلفظته المدينة، ليتخذ أطرافها مسكنا له.

يبدو وجود هذه الفئات الاجتماعية من الناحية الاقتصادية وجودا مؤقتا، لأنه بإمكان أرباب العمل الاستغناء عنها بسهولة أيام الأزمات، دون الاكتراث بما يمكن أن يسببه هذا الاستغناء من آثر سلبية عليها. هي حياة "مؤقتة" تلك التي تميز حياة الهامشيين.

وقد أكّدت التجارب التاريخية أنّ هذه الفئات الهامشية قد تشكل مصدرا للحركات الاجتماعية والسياسية الثائرة والمتمردة على السلطة السياسية والاجتماعية، لأنها تحاول أن تخرج من وضعها الهامشي، وتفرض صوتها (أو أصواتها) التي تجسد رؤية مغايرة لرؤية السلطة المركزية. وقد كانت هذه الفئات عبر التاريخ مصدرا للثورات الاجتماعية التي قلبت الأنظمة، وغيّرتها، ذلك أنّ "الهامشي الذي يتموقع خارج مجالات الفعل المركزية يحوّل الهامش إلى فضاء للفعل " (ابتسام، ط1، 2019، صفحة 35)

غير أنّ ذلك لم يخل من تحول الهامش إلى مركز قد يكون أشد صلابة وقساوة مما كان عليه قبل الثورة، وهذه الظاهرة تنبهنا إلى ضرورة التعامل بحذر مع مقولتي الهامش والمركز، لأنه قد يتبادلان الأدوار لما تتغير الشروط الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.